

لعل تواتر الكوارث الطبيعية (حرائق وزلازل وفيضانات)، واستمرار الأخطار الخارجية (حروب وصراعات وغزوات)، وتعاضم الاحتياجات الداخلية (تأمين الغذاء والأمن والاستقرار)، كانت من جملة الضرورات والاهتمامات التي أضفت على خلفية موقف حكيم تميز به، أو رأي سديد أفصح عنه، ولما كانت الأعمال المتميزة والأفعال الاستثنائية هي من اجترار الأشخاص لا الجماعات فإن "فكرة (الزعامة) لم تكن سوى الوليد الذي أنجبته الظروف القاسية والأوضاع الشاذة، التي استتشر 1 والأفراد لا^{١٥} تمعات" الإنسان القديم من خلال مقدار عجزه عن مواجهتها كأفراد متفرقين وجماعات مشتتة، وبالتالي مقدار حاجته لمن^{١٦} ويدراً عنه أخطارها" الواقع أن تراكم الأزمات على تعدد أصنافها وتحديق الأخطار على اختلاف منابعها قد يتصدى 2 لتداعيا جعلت الجماعة تختار من بين أفرادها قائدا رأت فيه مواصفات تؤهله للقيادة، فالرأي السديد الذي يوجه الأوضاع نحو الأفضل، والقرار الصواب الذي ينقض العمل الاستثنائي الذي يعكس نباهة صاحبه ورجاحة عقله كانت من جملة المعايير التي تصنع من^{١٧} ما يخلق الفارق بين الزعيم وباقي أعضاء الجماعة. "ولأن الوعي الجمعي لتلك الأقوام والجماعات، لم يبرح الفرد العادي وهي ذا يختزن بين طيات أرشيفه اعتقادات وتصورات مضمومة^{١٨} إن كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر وموجودات، تمتلك في ماهيتها^{١٩} مما يستتبع إن كل من تتوفر لديه الإمكانيات المادية والمؤهلات^{٢٠}ga التأثيرية ومدى سطو طاقات روحية تتناسب وحجم قدر^{٢١}، يغدو مرشحا لأن يحاط^{٢٢} من الاعتبار المعنوية؛ إما لاحتواء غضبها واستبعاد مضارها أو لاستدرا عطفها واستجلاب خيرا الاجتماعي والتوقير الرمزي، ولهذا فليس بلا سبب أن تسبغ تلك الجماعات البدائية طابع الإجلال – والقداسة في الغالب – على أسلافها الأوائل، الذين اجترحوا المآثر وحققوا الانجازات ولبوا الطموحات، معتقدين بأن كل ما تمخض عن 1 – ثامر عباس. لات الخفية التي تربطهم بالآلهة، وتلك العلاقات السرية التي^{٢٣}م الشعائرية، لولا وجود تلك الص^{٢٤}g 128 أفعالهم الطقوسية وممارسا تشدهم إلى الأرباب، وعلى ذلك (يذكر ثامر عباس بأنه) بينما تبدو فكرة تجسد فلم يكن فيها ما يدعو للعجب أو الدهشة بالنسبة للإنسان المبكر، الذي لم يكن يعتبر التي نسبها بكل صدق وإيمان 3 إلى نفسه هو" بل إن الفوارق الفردية هي التي تجعل الفرد يتميز^{٢٥} ١. ولهذا فقد حظي^{٢٦} عن غيره، وهذه تؤهله ماديا ومعنويا لاحتواء غضب الكوارث واستبعاد مضارها أو جلب عطفها وخيرا م بتحقيق الآمال والوقوف في وجه الأزمات – ظنا منهم أن الإنسان لن يقوم بالمعجزات ما لم^{٢٧}g الأسلاف – الذين أثبتوا جدار تجسد فيه قوى إلهية، وهذا الأمر لا يدعو للعجب؛ ذلك أن الإله عندهم لا يختلف كثيرا عن البشر إلا في قوته الفائقة. على خلفية زج^{٢٨} تمعات المأزومة والشعوب المحرومة والأمم المهضومة في أتون؛ الأزمات (على تعدد أنواعها). كلما تعاضمت سواء كان برداء الزعيم السياسي المعتمر خوذة العسكر في الغالب، 4 بجلباب المرشد الديني المعتمر عمامة الدين في العادة" فالبطل المنقذ لا م وحمائيتهم من الأخطار التي تترصدهم فحسب؛ بل يستطيع أن^{٢٩}g يكون زعيما سياسيا تلجأ إليه الشعوب لتسيير أفرادها وتنظيم حيا^{٣٠}؛ ص . 248 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس متطلبات^{٣١}g يكون مرشدا دينيا تستشير في أمرها يوم تخرج الأمور عن سيطر الزعامة على غرار كل عملية انتقاء للأشياء أو للأشخاص التي تخضع لمعايير ومواصفات، يستند القدامى إلى جملة من المعايير يرون توفرها في القائد ضرورية لأداء مهامه على أكمل وجه؛ وكيونونتهم قياد أمرهم كيفما اتفق^{٣٢} رد أن (المتزعم) ينتمي لسلالتهم، و لا يحظون زمام قيادهم لكل عابر سبيل^{٣٣} رد كونه من صلب إذن فالجماعات لم تكن تسلم القيادة لأي كان،^{٣٤} رد كونه ينتمي إليها؛ 5 قبيلتهم" ومن جملة الشروط الواجب توفرها في الزعيم (البطل) البدائي هي التزامه "بتقديم كل ما من شأنه، للجماعة التي يمثلها ويرأسها فحسب، وإنما البرهان على تمسكه بذلك الانتماء والحرص على تدعيمه كذلك، والتدليل بالتالي 6 على حمايته إياها من الأخطار والتهديدات الخارجية" لذا فمن غير المعقول أن يحافظ القائد على مكانته بين جماعته وهو ينعم بكرسي الرئاسة وسائر م ودمائهم، إنما عليه أن يظل متمسكا بأواصر انتمائه لهم، ومبرهنا على^{٣٥}g انحداره من سلالتهم، وحمله لمورثات^{٣٦} أنواع التبجيل^{٣٧} ر أنه جاهز لبذل كل ولعل هذا الشرط لم يكن كافيا لإقناع هذه الجماعات لذا "فالشخصية التي كانت تظهر علائم التزعم في^{٣٨} تمعات^{٣٩} الاقتصادية فحسب، ص . 289 العدد^{٤٠}ga القيادية وإمكانيات^{٤١}ga القتالية ومهارات^{٤٢}ga البدائية، – بتقديم ليس فقط ما يبرهن على قدرا الخامس والجدير بالذكر أن "القدسية التي يتميز^{٤٣} ١٠ العاهل (الحاكم/ القائد) لا تأتي من الممارسات الدينية، التي كان يقوم^{٤٤} ١٠، كما وإنما العاهل (الحاكم/ القائد)، على العكس من هذا، يقوم بمثل هذه الممارسات الدينية، ويحظى 8 بمثل هذا التبجيل لأنه تميز أولا بالألوهية" يبدو أن مهمة الزعيم البدائي كانت صعبة جدا؛ إذ لم تكن تكفيه تضحياته ولا مهاراته وإمكانياته ليحظى بالتبجيل، بل فهو وإن كان من زمرة بشرية إلا أن الزعامة تتطلب لذا "فإن صفة (البطولة/ الزعامة) التي يفترض أن^{٤٥} أسبغت على أولئك الأفراد/ الأشخاص – الذين تمتعوا بمزايا جسمية وعقلية ونفسية، للشخص الموصوف (بالبطولة)، إنما كانت توحى بأن المعني ١٠ غالبا ما^{٤٦} وتمنحه من^{٤٧}g تتمتع برعاية خاصة من لدن القوى الغيبية، كنهها ويخشى غضبها ويتجنب لعنتها، بحيث تغدق عليه من فائض بركا

١ على الخلق، إنما هو ناتج من g معين سلطا ١٤ (. فالشخصية طبيعية من حيث كوا ١٤ مقدسة، واتسامها بقواها الخارقة، أو بقدر مقارنتها بالقوة الإنسانية ذات القدرة 9 المحدودة، مرجع سابق، 59 10 - المرجع نفسه، ص . 231 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس 131 لا تشكل ضمن 11 سيرورة الجماعة البدائية استثناء تستحق عليه الثناء (. طالما البطل يعجز عن إثبات تفوق أصله الإلهي وباختصار شديد "فإن سلطة القيادة كانت مزيجا من الوراثة الشرعية والدينية، للقادة أن يكون لهم علاقة بالآلهة كما في الحضارة الفرعونية، أو هم جنود الآلهة المنتخبون كما في الحضارة الفارسية القديمة، هم جزء من المكون الإلهي الديني كما في حضارات ما بين النهرين؛ كالسومرية والأكدية والآشورية" 12 يتبين مما تقدم أن القائد سواء كان في هيئة الزعيم أو في مظهر البطل أو في رداء كاهن، ليس فقط بما يظهره من حنكة قيادية أو توضيحات بطولية أو آراء دينية، بل بما يبرهن على نسبه الإلهي، كانت محض افتراض سرعان ص . الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص . 21 14 - مجدي الجزيزي. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001، ص . 20 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس وذا يجتمع خوف 15 هول بالإضافة إلى عدم ثقته في قواه اتجاهها قد مثلت البذور الأولى للكثير من الاعتقادات الدينية" البدائي وعدم ثقته بنفسه ليبتا في عقله روح البحث عن سما خاصا، بل qn و T دده، التي تؤثر في حياته دون أن يتعرف كنهها، وأخذ يعطي كلا منها شكلا معي g تفسير للظواهر التي باتت أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة، فجعل من بعضها أصدقاء ومن البعض الآخر أعداء ومن هذا الشعور نشأت الديانة التي لم 16 تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط به وتؤثر عليه" وفي السياق ذاته يقول دي بروس: "أن الشعوب م أفضل، إلى إحساس بقوة عليا، تخيلات الإنسان. 17 غير T بعد قرون من البربرية ترسخ خلالها المحافظة الشديدة لتصل إلى تفه ن لنا مما T كره الإنسان المرتعب على شخصنة الأسباب ورؤيتها كفيتش" لقد تبي D المعتادة مثل الأزمات والأمراض والحروب ت افسروا مظاهرها بأن وراءها وعليه يجتمع خوف g سبق أن الجماعات البدائية حين عجزوا عن التصدي لقوى الطبيعة ومجارا البدائي وخياله وضعفه ليساهموا 15 - سيرغي توغاريف. ديانا الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2014، ص . 26 17 - مهنا يوسف حداد. الأنثروبولوجيا الدينية أو العلاقة التبادلية بين ظاهرتي الحضارة والديانة، ا وحكتها g دار البازوري، الأردن، 2011، ص ص - 70 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس 133 إذ ظهرت شخصيات أثبتت جدار ا من الهلاك، مورثات من القوى نفسها التي تقود مظاهر الطبيعة، وبالتالي لا فرق عندهم g في مواجهة هذه الكوارث وإنقاذ جماعا بين القوى المؤهلة وهؤلاء الأفراد الأبطال إلا في وبما أن القوي - في نظرهم - يستحق التأليه شأن القوى الغيبية الغامضة، فقد ع هؤلاء وأوكلت إليهم مهمة حماية الجماعة والدفاع عنها. ولهذا فقد نصبوا كملوك وزعماء وحظوا بالتبجيل ولأن مصالح q D ر الأفراد كانت مرتبطة بحياة هذا الملك/ الزعيم، الذي وقّر الحماية والأمان لشعبه وقت الخطر، فقد بذلت رعيته كل جهدها لتوفير ديد يمكن أن يترصده، ذلك أن "ضرورة حماية الملك من الأخطار المحتملة تنبع من الدور الضخم g الأمان له، وحمايته من أي الذي يضطلع به في حياة رعاياه. فشخصه، بحصر معنى الكلمة، شعبه أن يعترف له بالجميل ليس فقط على الغيث ونور الشمس الذي ينبت ثمار الأرض، بل كذلك على الريح التي تستاق وعلى الأرض التي يطأها الناس بأقدامهم. وعليه، ترجمة: جورج طرابيشي، الطوطم والحرام، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، 2، 1997، ص . 61 19 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص . 232 ديد للملك لكن الملك حتى ولو رفع إلى مرتبة الآلهة فهو يبقى بشرا معرضا للموت، فإلى أي مدى أفلحت g T العدد الخامس إذ أي هذه الجماعات في حماية إلهها البشري من الموت؟ وما هي الطريقة البديلة التي ابتدعتها لتحافظ على بقائه ضمن الجماعة مادام الموت فكرة لطالما ارتسمت في المخيلة البشرية، على ١٤ الفاصل الذي يضع حدا بين الأحياء T سيموت لا محالة ؟ يعد والأموات، بحيث يغرب رجعة؛ وتبقى أرواحهم متشبثة بالأماكن التي كانوا يسكنون ١٤. فالموت بالنسبة له لا يعني بأي حال من الأحوال التوقف الخالص والبسيط لأشكال النشاط والوجود كافة، يكون أمرا مطلقا أبدا. 20 - للاطلاع على كيفية دفن الموتى لدى بعض الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني ، (د. ط)، د. 82 104 ، 97 ، 93 21 - جاك شورون. سلسلة عالم المعرفة، 22 ا بعد g 22 - ثامر عباس. مرجع سابق، ص . اعتنقها أعضاء الجماعات الحاكمة، وينفي أن تكون الشعوب قد تخيلت آلهة ثم عبد ذلك". 135 "وقد آمن المصريون أيضا بخلود الروح، وأرادوا للسعادة التي عرفوها في الحياة أن تستمر بعد الموت. نفس محرقة مركزها القلب، سموها (با) وصوروها على هيئة طائر ذي رأس بشري، ونفس مفكرة مركزها الرأس، سموها (كا) وكانوا يحنطون ت ويملاؤن ضريحه طعاما وشرابا من أجل (با) التي تستطيع ويصنعون له تمثالا بحجمه الطبيعي من أجل (كا)، T جسم المي مع إله الشمس. ومنهم من جعل الروح الصالحة ترتع في مملكة T ل نجوما أو تتحد T يضعونه فوق واعتقد بعضهم أن الأرواح تتحو أوزيريس، وهي أرض مغبوبة تشبه الجنة. على هذا النحو تختزل ماهية الموت عندهم في فكرة واحدة هي غياب الأحياء عن

الأنظار بحيث تصعب رؤيتهم أو فهم أيضا شاخوا وماتوا، لكن عندما اكتشفوا فيما بعد فن التحنيط أعطوا الأرواح الميتة فرصة أخرى للعيش من خلال الحفاظ على أجسادهم من التفسخ مدة مفتوحة، وذا الاختراع أخذت الآلهة كما أخذ البشر فرصة إضافية مرجع سابق، ص . 24 – أديب صعب، الأديان الحية نشوؤها وتطورها، 1993 ص . 20 25 – جاك شورون، ص . العدد م في الأحلام والرؤى على شكل أجساد بشرية يبدو أن التحديات الخامس أما كبار الآلهة عند البابليين فكانوا يظهرون لعبد العظيمة التي قام الزعماء والأبطال والتي أدنتهم إلى مصاف الآلهة، لم تكن لتقيهم من الموت؛ على الرغم من مكانتهم هذه يعون م يكون أشد حدة وألما من موت الشخص جيدا بألم في أي لحظة من اللحظات معرضون للموت، وعلى الرغم من أن مو ا وقمةم، إنه ذر العادي، وبوصفه آخر المحن التي يتعرض موت الآلهة البشرية أو الأبطال المؤلهين إذن لا يعد حياة لحيا اكتمالها، الحقيقية، يسمى الأعلى منها آلهة. ومملكة الأموات والحرب لهم مكانات 29 رفيعة، غير أن أرواح الأسلاف يمكن أن تأخذ مكانات الآلهة، 27 – جاك شورون. مرجع سابق، مرجع سابق، وقد عرفها الهنود الإيرانيون بدورهم، يمكنها حماية أرواح أقارب الأحياء، واستعطاها بالشكل اللائق، يراجع: ثامر عباس. ص . 137 العدد الخامس 137 جراء الموت الذي يدهم حياة الآلهة ا، فالزعيم نحو الزاوية الإيجابية، فبعد أن كان حياة الحياة، جعلوه قمتها وذروا ديدا للجماعة، قد غي البشرين، والذي يمثل الإله لا يموت موتا كاملا إنما يحيا ما حيث أجيال الرعية، بل إن روحه تزداد قداسة كلما زادت المدة التي تفصل حاضره عن سوا القوى الغيبية، كما قدسوا زعماءهم، الحاليتين قد سببه الخوف يوم موته، نذكر من خلال ما مر معنا أن البدائيين قد قد والعجز حيال الكوارث المفاجئة؛ ووجدوا في أبطالهم وقد أشار سيغموند فرويد إلى هذه القضية، عن طريق جملة من الأحكام الحرمية. السحرية، مثلها مثل الشحنة الكهربائية، مكافئة وفي هلاكه. من هنا كان وجوب تحاشي أي تماس، مباشر أو غير مباشر، مع القداسة الخطرة؛ لا يمكن فيها تفادي عواقبه الوخيمة. فقبائل النوبا في شرقي إفريقيا، ملكها – الكاهن، عن الكتف اليسرى وأتاحت مجلة أنثروبولوجيا شفاء وحماية ضد الشرور التي تتأتى من هذه الملامسة بالذات، ولكنها هذه المرة ملامسة مقصودة وتجوز، الملك، وبعبارة أخرى، إنه يتبين من خلال هذا القول أن البدائيين قد عاملوا زعماءهم بطريقتين هما في الظاهر متناقضتان لكنهما متكاملتان في رأي سيغموند فرويد: الخوف عليهم والخوف منهم، أما خوف الأوائل على ملوكهم الآلهة فنظن أنه مبرر من ناحيتين؛ الأولى: ارتباط مصالح الجماعة م وهذا ما أسهبا الحديث حوله سابقا، والأخرى: امتلاكهم لقوى أقل من تلك التي في حوزة الآلهة؛ والتي رفعوهم م من بشر الزعامة: عقوبة أم تقديس؟ وفي أي مكان، لكننا نرى عكس ذلك عند بعض الشعوب؛ وهم يفون بكل اندفاع ذا الحق الدستوري إلى حد أن العاهل 31 التعيس الحظ غالبا ما يفارق الروح قبل تسلمه العرش" 30 – سيغموند فرويد، مرجع سابق، ص . 59 31 – نفس المرجع، مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس كوكولو، الذي ينال عليه جالسا. فتضطرب أحوال الملاحة. وقوام وظيفته أن يهدئ العواصف، فكلما كان الملك من كانت أكثر تعدادا الحرمات التي يتعين عليه أن يراعيها. ا إلى حد الاختناق" لذلك ولكنها 32 تتراكم من حوله أكثر فأكثر كلما شب عن الطوق؛ ويوم يتسلم العرش فإنه ينوء تحت كثر يحمله خدمه على أكتافهم حينما تدعو الضرورة إلى أن يقصد مكانا ما، ولكن لا يليق أيضا أن يتعرض شخصه للهواء الطلق، إضاءة رأسه. وجميع أجزاء جسمه تخلع عليها صفة مسرفة في قداستها، ولا يجوز له أبدا ولكن حتى لا تمنع عنه كل عناية على الإطلاق، فإنه يغسل ليلا، وما ينتزع من جسمه في هذه الحالة يمكن أن يعد وكأنه سرق منه، سوء الطالع أن يستدير إلى جانب أو إلى آخر، فإن ذلك قد هو نقمة في نظر بعض الملوك الذين حملوا ما لا طاقة لهم به بعد اعتلائهم العرش، التي تضيق الخناق عليه، وهويتها، يتحمل الملك تبعات ما قد يحصل من كوارث وأمراض، "بل ذهب م الحرص على حسن سيرورة العلاقات الاجتماعية حين وضعوا أوزار اعتلال صحة الجماعة على عاتقه، معتبرين أن سوء طالع هو السبب وراء ما يصيب الجماعة 32 – سيغموند فرويد، مرجع سابق ص . 64 ص ص ، 63 . 64 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس 140 من أزمات وانتكاسات" وحتى بعض الأمور التي تعد حاجة فطرية من حقه الاستمتاع م كأى إنسان عادي، يحرم منها، أم أن في الأمر دافعا آخر؛ وإلى أي حد استطاع الملوك الصمود أمام معتقدات شعوم التي ما فتئت تتضاعف جيلا بعد جيل؛ بل وربما يواجهون الطرد أو القتل في بعض الحالات، ذلك أن "العاهل في الأنظمة الملكية البدائية لا يحيا إلا من أجل رعاياه ولا قيمة لحياته إلا مادام يضطلع بالتزامات وظيفته ويسوس مجريات الطبيعة لما فيه خير شعبه به من أعلى درجة إلى حقد وازدراء . فيطرد مجللا بالعار والشنار، ويعتبر نفسه سعيدا إذا أفلح في النجاة بحياته. ولئن كان يعبد فقد يقتل غدا كما يقتل أرم .) فإن يكن الملك إلههم فلا بد أيضا، كما يعتقدون، أن يثبت أنه 36 حاميه؛ 34 – ثامر عباس. مرجع سابق، 35 – ثامر عباس، مرجع سابق، 122 . 123 مرجع سابق ، اونه أو عجزه عن أداء مهامه؛ 62 مجلة أنثروبولوجيا العدد الخامس 141 وإن كانت هذه الجماعة قد رحمت زعيمها بعد

واكتفت بتنحيته عن منصبه أو طرده، فإنّ غيرها من الجماعات "لم تكن لتتوانى عن التضحية به إن استشعرت فيه الضعف ع روحه من عابديه وسترفض هذه الروح العودة إلى هذا وانعدام ذلك أن "مظاهر التعظيم والتكريم – ناهيك 37 المقدرة، سيضي الجسد، المحدقة م؛ وبالتالي عندما يبدو على الحبر أنه ميت جراء مرضه يقوم الذي قدر له أن خلفه بالدخول إليه ومعه إما حبل يخنقه به أو وفي مملكة بونيرو في إفريقيا الوسطى، ذلك أن العرش سينهار حالما تتقطع السلالة بموت الملك موتا طبيعيا، 39 م على القيام 37 – ثامر تجاه زوجاته المتعددات، وأخرى ترميه وسط معركة طاحنة بدون حماية " لم يكن ليدوم ما لم تدم قدر ،عباس، مرجع سابق، 301 ص . 39 – جيمس فريزر